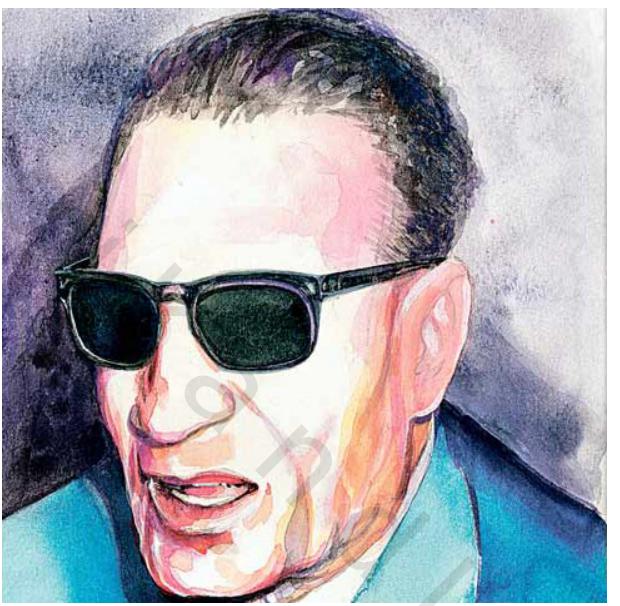

طه حسين

والإرادة الصلبة

قليلاً ما يذيع التليفزيون هذا اللقاء الفريد الذى التف فيه حول طه حسين مجموعة من أبرز كتاب مصر يحاورونه.. ويداعبونه.. وهو يحاورهم ويداعبهم.. ويفيدون من علمه وفكره.

وبالرغم من أن بعض الحضور قصد مشاكسته.. فإنه بكل هدوء وتعقل كان يمتص هذه المشاكسة ويحيلها إلى قضية فكرية تستحق المناقشة.

ونغمض أعيننا.. لنعود إلى هذه الشخصية التى عاشت محنة حياتية كبيرة، لكنها مع ذلك لم تستسلم لهذه المحنة.. لكن الإرادة الصلبة كانت دائما مشعلاً مضيئاً فى كل طريق..

كان الميلاد فى الرابع عشر من نوفمبر عام ١٨٨٩م فى قرية (عزبة الكيلو) التى تبعد عن مغاغة بمحافظة المنيا بمقدار كيلو واحد.

كانت الحياة فى ذلك الزمان بسيطة عشوائية.. فلما أصيب طه – فى السادسة من عمره – بمرض الرمد الصديدي فى عينيه.. ذهبوا به – كالعادة – إلى حلاق القرية.. الذى تسبب بجهله فى فقد الصغير بصره ليعيش طوال عمره بهذا المحنة.

وتبدأ حياة الصغير الضرير تتبدل.. بدأ يستحى أن يأكل مع إخوته.. وحرم اللعب مع أصدقائه فى مثل سنه.. وكان عليه أن يذهب إلى الكُتاب ليحفظ القرآن الكريم..

لكنه بالإضافة إلى الكُتَّاب.. شغف بالاستماع إلى القصص وشاعر الربابة الذى يحكى السير الشعبية.. وما إن أكمل حفظ القرآن الكريم حتى لقب بالشيخ طه.. وقرر أبوه أن يرحل طه مع أخيه إلى القاهرة للالتحاق بالأزهر، ويصبح شيخاً حقيقياً مثل هؤلاء الذين يسمع عنهم ويراهم.

أما أخوه الذى كان سيرافقه لدراسة الطب بالقاهرة.. فقد داهمه مرض الكوليرا وقضي عليه.. وبقي على طه أن يرحل لاستكمال الدراسة الأزهرية.

ويجد طه حسين مثلاً أعلى يتعلق به هو أبو العلاء المعرى.. فأقبل على دراسته ومعرفة أسرار حياته لعل ذلك يغدو أنيساً له فى محنته.

ويلتحق بالأزهر ويكتشف أن هناك أساتذة يدعون إلى التجديد.. وآخرين يدعون إلى الجمود.

ثم تفتتح الجامعة المصرية عام ١٩٠٨م.. فتطلع إلى الالتحاق بها.. لكن كيف؟ وهل ستقبله الجامعة؟.

وشاء القدر أن يقبل الفتي فى الجامعة ويبدأ فيها حياة علمية منظمة على أيدي أحمد لطفي السيد وعبد العزيز جاويش وحسن المرصفي وغيرهم، ممن كانوا يكتبون مقالات أدبية ونقدية فى الصحف، وكان سعيداً حينما بدأ يكتب معهم فى الصحف.

وفـى يـوم اسـتدعاه الشـيخ عبـد العزيـز جاويـش.. وكان معجبـاً بكتاباتـه وقـال لـه: أفكـر يـا فـتي أن نفعـل شـيئا مـن أجلـك.. لابـد مـن سـفرك إلى فرنسـا عامـين أو ثلاثـة أعـوام.

كانـت مفاجـأة صادمـة مفرحـة معـاً.. لم يتوقعهـا الفـتي.. لقـد تذكـر أن أسـتاذه أحمـد لطفـي السـيد قـال لـه يومـاً: لـو داومـت علـى أسـلوبك هـذا فسـوف تكـون لـك مكانـة لا تقـل عـن مكانـة فولتـير فـى الأدب الفرنسـي.

تـري هـل شـاء القـدر أن تحقـق هـذه النبـوءة.. ويذهـب إلى حيـث عـاش فولتـير.. فربمـا لاحقـه وصـار فـى مكانتـه؟.

لقـد كان يتمـني أن يكـون مثـل أبـي العـلاء المعـرى (رهـين المحبسـين) لكـن لا بـاس أن تتضاعـف الأمنيـات.

إنـه يمتلـك الإرادة القويـة.. والعزيمة التـى لا تلين.. ويواجه بـكل صلابـة كل المعوقـات، وبـدأ يحيـل ظلامـه إلى نـور وأمـل.

راح يتعلـم اللغـة الفرنسـية بـإرادة حديديـة.. حتـى اسـتوعبها وتحـدث بهـا كأنـه واحـد مـن أهلهـا.

كان متأكداً أن اللغة معبر نحو ثقافة أخرى مختلفة.

وبعـد أخـذ ورد مـن الجامعـة، وافقـت الجامعـة علـى سـفره بصحبـة أخيـه.. وكان ذلـك فـى عـام ١٩١٤م (وهـو فـى الخامسـة والعشـرين مـن عمـره).

كان أقصى ما كان يتمناه أبوه أن يصير شيخاً أزهرياً معمماً يخطب الجمعة.. ويفتى فى العبادات.. ويقدم الوعظ والمشورة.. فإذا به يتخطي ذلك كله إلى لغة أخرى.. وثقافة مختلفة.. بل ومجتمع متطور ليس كعزبة الكيلو.. ولا حتى القاهرة آنذاك.. إنها باريس.

ركب الباخرة من ميناء الإسكندرية لتتجه به إلى مارسيليا الميناء الفرنسي الشهير.

ثمانية أيام كأنها الدهور.. يحلم.. ويتوقع.. ويخاف.. ويتوجس.. ويشعر بالخطر.. ويعزي نفسه بالقوة الداخلية.. تناقضات كثيرة عاشها الفتي فى رحلة البحر.

وجد الفتي فى صحبة أبي العلاء عزاء له. وفى ذلك يقول فى (الأيام): "يرحم اللهِ أبا العلاء.. لقد ملأ نفس الفتي ضيقاً بالحياة.. وبغضاً لها.. وأيأسه من الخير.. وألقى فى روعه أن الحياة جهد كلها ومشقة كلها.. وعناء كلها".

ثم شاء القدر أن يتلقى بفتاة فرنسية تسمى (سوزان)، لكى تكون قارئة له.. فبدأت حياته مرحلة جديدة من الإشراق والسعادة.. وتبدأ بينهما عاطفة قوية تنتهي بالزواج بعد عدة سنوات.

والحقيقة أن سوزان كان لها أثر كبير فى حياة طه حسين الشخصية والعلمية فقد كان الحب بينهما تظلله

المعرفة والعلم.. فوقفت إلى جواره تسانده وتشد من إرادته حتى حصل على الليسانس وعلى الدكتوراه..

عاد الزوجان إلى مصر ومعهما وليدهما الأول عام ١٩١٩م.

ويعمل طه حسين أستاذاً للتاريخ القديم فى الجامعة المصرية.. وفى عام ١٩٢٨م يصبح عميداً لكلية الآداب.. ولكنه سرعان ما استقال من عمله احتجاجاً على طلب منح كل من "على ماهر" و"عبد العزيز فهمي" و"توفيق رفعت" و"إبراهيم يحيي" درجة الدكتوراه.

ثم عين وزيراً للمعارف.. وهو صاحب فكرة أن التعليم حق لكل إنسان مثل الماء والهواء.

تلك كانت رحلة طه حسين.. الذى وقف أمام الصعاب بقوة وإرادة ولم يستسلم لفقد بصره ولا لبؤسه وإنما أحال كل محنة إلى قوة وإضافة إلى الحياة..

وتعدد نشاط طه حسين الأدبي والعلمي والسياسي.. فقد ترجم عن الفرنسية لراسين وفولتير وأندريه جيد.. وكتب فى الإسلاميات: الوعد الحق.. على هامش السيرة.. مرآة الإسلام.. الشيخان.. الفتنة الكبرى.

وكتب عن أبي العلاء: ذكرى أبي العلاء المعرى – تجديد أبي العلاء.. وفى الدراسات الأدبية: حديث الأربعاء – حافظ وشوقي – الشعر الجاهلي – خصام ونقد..

وفـى القصـص والروايـة: دعـاء الكـروان.. شـجرة البـؤس.. المعذبـون فـى الأرض.. الحـب الضائـع – وعـن سـيرته الذاتيـة: الأيـام.. أديـب.

إلى جانـب أعمـال أخـرى كثـيرة سـجلت لـه تاريخـاً علميـاً وأديبـاً رفيعـاً..

لقـد كان ثائـراً علـى التخلـف والقيـم والتقليديـة.. وداعيـاً إلى التجديـد والتطـور.. مـزج ثقافتـه العربيـة بثقافـة الغـرب.. فـكان رائـداً مـن رواد التنويـر..

إن طـه حسـين مثـل لـلإرادة القويـة التـى شـقت طريقهـا فـى الصخـر فحفـر بأظفـاره فيـه حتـى كتـب لنفسـه تاريخـاً حافـلاً بالمنجـزات.

وفـى ٢٨ فبرايـر عـام ١٩٧٣م رحـل طـه حسـين بعـد أن اطمـأن إلى عبـور الجنـدي المصـري إلى صحـراء سـينا، فمـات مسـتريحاً بعـد أن تـرك لنـا تراثـاً لا يمـوت.